الفصل الثالث

فلسفة الدعاية السوفيتية

obeikandl.com

obeikandl.com

فلسفة الدعاية السوفيتية

يبنى السوفيت صرح دعايتهم الخارجية الموجهة ودعايتهم الداخلية المضادة فى مواجهة العالم الرأسمالى على أساس نظرة فلسفية محددة إلى الأوضاع العالمية مستمدة من العقيدة الماركسية اللينينية . وذلك فإن من الصعب جداً إن لم يكن من البلاهة محاولة التفرقة بين الدعاية السوفيتية والسدعوة أو التعليم المذهبى .

وإذا كان الفكر الماركسى يدور أساساً حول حتمية الصراع الطبقى فمن الطبيعى أن يربط دعاتهم بين الصراع الطبقى فى المجتمع والصراع على المستوى العالمى . فانتصار أو انكسار أى من الطبقتين (البرجوازية أو البروليتاريا) فى وطنها — له فى رأيهم — نتائجه المباشرة على البلدان الأخرى ذلك أن كلاً من الطبقتين لا تتصرف كقوة داخلية فقط ولكن كقوة دولية أيضاً .

وبرغم أن ساسة الغرب ودعاته لا يمكنهم تجاهل الدور الواضح للصراع الأيديولوجى الأساسى فى السياسة الخارجية وارتباط هذا الصراع العميق بالصراع الطبقى داخل النظام الرأسمالى نفسه إلا أنهم يقفون بشدة ضد محاولة السوفيت الترويج لفكرة تدويل الصراع الطبقى لأن شيوع هذه الفكرة وتبنى الجماهير لها لا يعنى فى النهاية سوى اهتزاز النظام الرأسمالى من أساسه .

وهذا — فى حقيقة الأمر — السبب الذى يحدو عادة برجال السياسة والإعلام الغربيين إلى تفسير المسائل المتعلقة بالصراع الأيديولوجى سواء فى السياسة الداخلية أو الخارجية خارج النطاق الأيديولوجى وخارج فكرة الصراع الطبقى حتى لا يجذبوا انتباه الكتل الشعبية إلى مثل هذا التفسير . ولذلك فإنهم يلجأون عادة إلى إحلال مفهوم « الرأى العام » محل المفهوم الأيديولوجى .

فالرأى العام يريد كذا وكذا أو الرأى العام يرفض كذا وكذا .

وبرغم أن السوفيت لا ينكرون أهمية الرأى العام فى النظرية السياسية إلا أنهم يرون أن تحديد الرأى العام بمواقف واقعية ، تنبع عن سلسلة من المسببات كتأثير ظروف الحياة على الطبقات والجماعات المختلفة والتأثيرات الأيديولوجية والعوامل الاجتماعية السيكولوجية التى تؤثر فيها شىء . وتحديد معناه فى ضوء تلك الظاهرة الوهمية المراوغة — فى اعتقادهم — والتى يسميها كتاب الغرب تجاوزاً بالرأى العام ويريدون لها أن تحتل مكان الوعى الطبقى والأيديولوجى شىء آخر .

ذلك أن المنظرين السوفيت يعتقدون أن استخدام لفظ الرأى العام بواسطة بعض السياسيين وبعض المنظرين فى العالم الرأسمالى كثيراً ما يصل إلى حد الابتذال السياسى الخالى من أى معنى حقيقى فهو عادة ما يستخدم لتحقيق أهداف نفسية خالصة كتبرير بعض الأفكار أو الإجراءات أو المطالب أو رفضها ، ويضربون مثالا على ذلك إطلاق القول بأن الرأى العام الغربى — على بكرة أبيه — معاد للسوفيت وأن الرأى العام يؤيد السياسية الاستعمارية العدوانية .

الخلاصة أن السوفيت يرون أن الصراع الأيديولوجى جزء لا يتجزأ من الصراع الطبقى وأنه من خلال هذا الصراع تصبح كل طبقة واعية بنفسها كطبقة مستقلة فى المجتمع لها أهدافها ومصالحها واتجاهاتها بالنسبة للقضايا السياسية والاقتصادية .

وبالإضافة إلى ذلك فإن الأفكار أو الصراع الأيديولوجى يلعب دوراً أساسيًّا فى تحديد مهمة أساسية للسياسة ، هى كسب تأييد الجماهير . فبرغم أن الجماهير تدفع إلى الحركة أو العمل تحت التأثير الموضوعى المتصل اتصالا مباشراً بظروف حياتها فإن الأفكار والصراع الأيديولوجى يكونان عاملا حيويًّا فى هذه العملية الموضوعية ، ذلك أن الفكرة أو النظرية تتحول إلى قوة مادية بمجرد أن تستحوذ على عقول الجماهير .

وهذا يوضح التصور السوفيتى لطبيعة العلاقات الأيديولوجية، سواء داخل المجتمع أو على صعيد المحيط الدولى ، فى الصراع الأيديولوجي يكون الهدف الأساسى لأى طبقة وضع أكبر عدد ممكن من الناس تحت تأثير أفكارها وانتزاعهم بعيداً عن التأثير الروحى للطبقة المعادية . ويبدأ هذا العمل بالضرورة بالغزو الأيديولوجى للكتل الشعبية ، داخل ذات الطبقة كى تتحد الطبقة فى صراعها لتحقيق مصالحها وأهدافها .

والطبقة تتكون من عدة ألوف وأحياناً ملايين من الناس المنتشرين فى طول البلاد وعرضها ممن يعملون فى مجالات وأنشطة مختلفة وهم فى أحيان كثيرة ينقصهم الوعى بأحوالهم ومصالحهم المشتركة ويصدق هذا بصفة خاصة بالنسبة للطبقة التى ما زالت تحارب فى سبيل الاستحواذ على السلطة، فالنسبه لمثل هذه الطبقة تصبح سيادة أيديولوجية مشتركة بمثابة العامل التنظيمى الوحيد لتجميع قواها وتوجيهها باعتبارها الوسيلة التى تسبق كافة الوسائل بما فى ذلك الوحدة السياسية .

فالمرحلة الحاسمة فى الصراع من أجل السلطة سواء بواسطة البرجوازية أو البروليتاريا — تبدأ على وجه اليقين بالوحدة الأيديولوجية عن طريق الدعاية داخل الطبقة ، وفى نفس الوقت تستخدم الدعاية الأيديولوجية بواسطة الطبقة لتحطيم الوحدة الروحية للطبقة المعادية ، كى تضمن لنفسها أعمق تغلغل ممكن فى صفوفها .

ومن الطبيعى فى هذا المقام أن تكون إمكانيات الطبقة الناهضة محدودة ، إذ أن عليها أن تتصارع مع عدو واع تماماً بأهدافه ومصالحه ومنظم تماماً للدفاع عن هذه الأهداف والمصالح .

وهنا تنحصر المهمة فى التأثير الفردى على عناصر من الطبقة الأخرى قادرة على الارتفاع فوق مستوى مصالح الطبقة ، ومثل هذه العناصر تكسب عادة من الجانبين — من جانب الثورة وجانب الطبقة القديمة .

والنماذج على ذلك كثيرة ، وهى بطبيعة الحال تعتبر حالات استثنائية بالنسبة لقاعدة الصراع الطبقى .

والأمر يختلف بالنسبة للتأثير الأيديولوجى الذى تمارسه الطبقة الحاكمة على الطبقة المعارضة لها . فإمكانيات إحداث مثل هذا التأثير كبيرة والجهود لضمان مثل هذا التأثير يشمل جانباً كبيراً من اهتمامات الصراع الأيديولوجى ، ذلك أن أفكار الطبقة الحاكمة هى التى تسود عادة فى المجتمع .

وأخيراً فإن من أهداف الدعاية الايديولوجية — فى رأى السوفيت — بالإضافة إلى ما تقدم — كسب تأييد الجماهير فى الطبقات الوسيطة ، التى يتوقف نتيجة الصراع إلى حد كبير على تأييدها كالفلاحين والبرجوازية الصغيرة من سكان المدن والموظفين والمثقفين إلخ . .

هذه خلاصة وجهة النظر السوفيتية بالنسبة لفلسفة الدعاية السياسية المعاصرة وأهدافها الأيديولوجية التى تقوم عليها وتروج لها[1] . وننتقل الآن لمتابعة أساوب الدعاية السوفيتية لمواجهة الغزو الإعلامى الخارجى أو التخريب الأيديولوجى عن طريق ترسيخ العقيدة الماركسية اللينينية .

استراتيجية الدعاية السوفيتية الداخلية :

الدعاية فى الاتحاد السوفيتى يديرها الحزب على ثلاثة مستويات مختلفة ، وفى كل مستوى يتم تطبيق أساليب متميزة للتعليم . والجماعات الثلاث التى يهتم بها الحزب بالدرجة الأولى هى :

١ — المثقفون .

٢ — أعضاء الحزب العاديون .

٣ — الكوادر ، أو المسئولون فى الحزب والحكومة .

---

(١) Foster, W: "October Revolution and the United States of America" Moscow 1958, p35.

١ – المثقفون : ويقصد بهم المهنيون الذين يعملون فى كل المجالات الرئيسية للحياة القومية :

مثل : المحامون والأطباء والمهندسون والاقتصاديون والمدرسون .. إلخ ، ويتلقى هؤلاء تعليماً متقدماً فى المدارس العليا . ويقول ستالين « هناك فرع من فروع العلوم على كل البولشفيك أن يعرفوه ، وذلك هو علم الماركسية اللينينية فى المجتمع » . ينطبق هذا على المتخصصين فى الطب والكيميائيين كما ينطبق على علماء الاقتصاد وعلماء السياسة ، وعلى أعضاء الحزب وغير الأعضاء فى الحزب . ولهذا يجب أن توفر كل مؤسسات التعليم العالى فى الاتحاد السوفيتى حدّاً أدنى من التعليم أساسه برنامج دراسى فى تاريخ الحزب . وبرنامج دراسى آخر عام عن أسس الماركسية اللينينية « يعتبر من المستلزمات التى يجب أن يحصل عليها الطلاب فى جميع أنواع الكليات ، أما فى الجامعات والمعاهد التى تضم كليات للتاريخ والفلسفة أو الأدب فيدرس الطلاب كلهم برنامجاً دراسيا عن المادية الجدلية والتاريخية . والرجال الذين يدرسون تلك البرامج يتم اختيارهم بالتشاور بين إدارة الدعاية والتحريك والمسئولين عن التعليم العالى ويتم التدريب فى المدارس العليا للماركسية اللينينية التى تديرها اللجنة المركزية للحزب .

والتثقيف المذهبى الماركسى الموجه للمثقفين لا ينتهى بانتهاء مرحلة التعليم العالى فمن آن لآخر يقوم الحزب بإحدى حملاته الدورية للتدريب الأيديولوجى ، فيدخل عدد كبير من المثقفين فى مدارس خاصة مثل المعاهد المسائية للماركسية اللينينية التى تطورت بسرعة كبيرة منذ نهاية الحرب الأخيرة . فقبل الحرب كان هناك أربعون مدرسة من هذا النوع ولكن فى سبتمبر سنة ١٩٤٨ كان هناك ١٨٨ مدرسة وصل عدد الطلاب فيها إلى ما يزيد على ١٠٠,٠٠٠ طالب هذه « الجامعات المسائية » موجودة فى المدن الرئيسية ، وتقدم دورات دراسية مدتها سنتان يحصل بعدها الطالب على شهادة . وعلى الطالب أن يدرس من عشرين إلى أربع وعشرين ساعة فى الشهر . وبرنامج الدراسة يتضمن قسماً

تاريخيًا وقسما فلسفيًا وقسما اقتصاديًا . وأغلب الطلبة من المثقفين والمهندسين والفنيين والعمال المتعلمين والمدرسين والفنانيين . . إلخ . . والحضور اختيارى.

وهناك تأكيد كبير فى التثقيف المذهبى للخريجين من المثقفين على نظام المحاضرات العامة التى تسعى لجعل تلك الجماعة على علم باتجاهات تفكير الحزب فى الأمور السياسية والاقتصادية والاجتماعية الجارية . ولتحقيق هذا الهدف ينشئ الحزب مكاتب خاصة لإعطاء محاضرات ، ويستخدم مع التنظيمات الحكومية المتصلة . أساتذة الجامعة البارزين . وفى أحوال كثيرة يستخدم أيضاً المسئولين الذين يتولون مناصب كبيرة فى الحزب وذلك لإلقاء محاضرات عامة ، ومن الجدير بالإشارة أنه بالرغم من أن الجمهور يدفع رسم دخول بسيط لحضور هذه المحاضرات إلا أن عدداً كبيراً يحضرها . ويتم إلقاء تلك المحاضرات أساساً فى المراكز الرئيسية مثل موسكو وكييف ، حيث يتركز غالبية المثقفين وحضورها مفتوح للجماهير بشكل عام .

وأخيراً يجب أن نشير إلى أن الصحف اليومية تهتم بإشباع «الاحتياجات» الأيديولوجية لقرائها الذين ينتمون للطبقة المثقفة ، وتقع على الجرائد المهنية والفنية والمتخصصة مسئولية كبيرة فى هذا الشأن .

والجدير بالذكر أن الهدف من ذلك التثقيف المذهبى أساساً هو منع تطور أيديولوجية مستقلة قد تشكل تهديداً للنظام بين فئات المثقفين نتيجة لنقص معلوماتهم أو تعرضهم للتخريب الأيديولوجى .

٢ – الأعضاء العاديون للحزب :

المستوى الأساسى الثانى الذى يوجه إليه الحزب جهوده الدعائية هم الأعضاء العاديون فى الحزب . فمن الواجبات الأولى على كل عضو أن يعمل بدون كلل لإجادة مبادئ الماركسية اللينينية . وقد زاد من تعقيد مهمة توفير التثقيف المذهبى الضرورى ، الزيادة الهائلة فى عضوية الحزب التى ارتفعت من أربعة ملايين عضو قبل الحرب إلى ٦,٣٠٠,٠٠٠ بعد الحرب بسبب قبول أعضاء جدد بدل الذين فقدوا فى الحرب . فى سنة ١٩٤٦ كان ثلثا الأعضاء فى

الحزب يتكونون من أفراد التحقوا به خلال سنوات الحرب . وتلقوا تثقيفاً مذهبياً سطحياً خلال الحرب . ولمواجهة ذلك الموقف ، طبق الحزب إجراءات خاصة لإعادة تنظيم وتقوية نظام التعليم والتدريب بالنسبة لأعضائه الجدد ، وذلك لتحسين خلفيتهم العلمية بشكل عام . ويوجد ثلاثة مستويات للتدريب بالنسبة للمرشح والعضو العادى . فيتلقى الفرد تدريباً أساسياً فى المدرسة السياسية أو مدرسة الحزب لتعليم الشروعى يستغرق تسعة أشهر ويتطلب حضور الطالب حوالى ساعة ونصف أسبوعياً حيث يدرس ثلاث موضوعات أساسية هى :

١ — البناء الاجتماعى وبناء الدولة فى الاتحاد السوفييتى بما فى ذلك الدستور .

٢ — مشاكل خطة السنوات الخمس .

٣ — تعاليم الحزب .

ويقوم بالتعليم الدعاة الذين يتم إرسالهم من تنظيمات المدينة والمنطقة وقادة الحزب المؤهلون من المثقفين .

وبالرغم من هذا المجهود المنصب على التعليم المنتظم ، يثابر الحزب على تأكيد أهمية الدراسة الذاتية . أو الدراسة الفردية للأعمال الكلاسيكية لليين وستالين باعتبارها أفضل وأهم شكل للتثقيف السياسى المذهبى . لذلك يشجع الحزب خريجى الدوائر الدراسية وغيرهم من الأعضاء المؤهلين على القيام بمثل تلك الدراسة الفردية . وفقاً للبرنامج الذى وضعته إدارة الدعاية والتحريك للجنة المركزية .

ولمعاونة أولئك الأعضاء الذين يقومون بالدراسة الذاتية . يتم طبع أعداد هائلة من أعمال ماركس وإنجلز ولينين وستالين ، مع تعليقات وتفسيرات . وتباع بأثمان زهيدة . وبالإضافة إلى ذلك يوجد بالصحف المركزية والمحلية مقالات أو أعمدة خاصة يتم فيها مناقشة المادة المخصصة لمعاونة أولئك الذين يقومون بدراسة الماركسية وحدهم . والهدف من ذلك تسهيل التعليم الأيديولوجى لأعضاء الحزب . وتسهم صحف الحزب العادية بشكل أساسى

فى هذا المجال . ويوجد أيضاً مكاتب للحزب أو غرف للاستشارة تعمل كمكاتب متخصصة للأعضاء ويوجد فيها دعاة من المفروض أن يعاونوا الدارسين .

ويستهدف هذا التثقيف المذهبى الأيديولوجى الذى يلقنه الحزب لأعضائه العاديين إعدادهم إعداداً كافياً لكى يعملوا كمحركين بين السكان بشكل عام ، فيقومون بتنفيذ قرارات الحزب وتفسيرها للناس ، ويعبئون الجماهير لتنفيذ تلك القرارات . ولا شك أن القيام بهذه المهمة يتطلب ، كشرط طبيعى ، حداً أدنى من الفهم للمذهب الماركسى . وذلك لتهيئة المحرك بشكل عام ولتمكينه من الإجابة على الأسئلة بذكاء . ولكن الأمر الأساسى الذى يحتاج إليه المحرك هو أن يدرك إدراكاً واعياً الأهداف التى ترتكز عليها سياسة الحزب وقراراته .

والحقيقة أن النشاط الدعائى للحزب الموجه للأعضاء العاديين معد ، إلى حد كبير ، بشكل يوفر هذه الخلفية الأساسية من المعلومات .

٢ — كوادر الحزب :

المستوى الثالث لأوجه نشاط الحزب الدعائى ، والذى يعتبر من أهم مهام الحزب . يهتم بالتدريب الأيديولوجى لكوادر الحزب ، أى المشرفين فى الحزب والموظفين وممثلى الحزب الذين يعملون فى الحكومة والصناعة والتجارة وفى نقابات العمال والتعاونيات والجيش وغير ذلك من التنظيمات . ذلك أن الحزب يقود ويوجه الاتحاد السوفييتى من خلال جهاز كبير معقـــد من تنظيمات الدولة والتنظيمات العامة التى يتم وضع الأعضاء فى الأماكن الاستراتيجية فيها . وقد تم تطوير قنوات اتصال معقدة بين مراكز التخطيط واتخاذ القرارات فى موسكو ، وممثلى الحزب فى كل المناطق وجميع فروع الحياة القومية . ولكن أى جهاز بهذا الحجم عرضة لأن يخطئ ويسئ الفهم وأحيانا قد يكون عرضة للانهيار . ولا يستطيع ، حتى وهو يعمل بشكل سليم ، أن يأخذ فى الاعتبار كل حالة على حدة . ولذلك يهتم الحزب بأن يوفر لدى أولئك الموجودين فى الأطراف فهما كافيا للأهداف العامة وأساليب تفكير أولئك الموجودين فى المركز ، وأن يحاطوا علما

بالسياسات المعينة والقرارات . بحيث يكونوا قادرين على تكييف أنفسهم فى الظروف الجديدة التى قد تنشأ وعلى اتخاذ القرارات بدون أن يتلقوا تعليمات مسبقة قبل الإقدام على أى عمل . وفى ضوء هذا يمكننا أن ندرك الأهميه الكبيرة لتعليقات ستالين لمؤتمر الحزب الثامن عشر عن موضوع الدعاية حيث يقول :

لا يكفى أن ننظم بناء الحزب ، ونحسن الاتصال بين الوحدات العليا والسفلى ، ونختار بدقة الموظفين ونضعهم فى أماكن مناسبة بل يجب بجانب كل هذا ، أن نعمل على التغلب على نواحى النقص فى التدريب الماركسى اللينينى للكوادر . ذلك لأنهم إذا توقفوا عن فهم حقيقة قضيتنا وتحولوا إلى مجرد منفذين يقومون آليًا وبلا فهم بتنفيذ التعليمات الصادرة من أعلى — فلابد من أن يعانى بلدنا ويعانى حزبنا، « ويمكن أن نقول إنه كلما زادت المعرفة التى لدى الموظفين بالماركسية اللينينية فى أى مجال من مجالات العمل فى الدولة كان عملهم أكثر فاعلية ، . . والعكس صحيح . ويمكن القول أنه إذا نجحت دعاية الحزب فى تطوير كوادره بحيث يصبحون « ماركسيين لينيين » . قادرين على حل المشكلات التى تدخل فى توجيه الدولة بدون أن يقعوا فى أخطاء خطيرة ، فسيصبح لدينا من الأسباب مايبرر إيماننا بأن تسعة أعشار مشاكلنا قد تم حلها » .

يتضح مما تقدم أن الحزب لا يسعى من خلال التعليم الأيديولوجى لكوادره إلى مجرد إعداد ماركسيين متعمقين ، ولكنه يحاول أن يجعل منهم فى الوقت نفسه مسئولين أكثر فاعلية بفضل ثقافتهم المذهبية وأكثر مقدرة على مقاومة الانحراف وألوان الدعايات المضادة[1] .

---

(١) لمزيد من المعلومات راجع مذكرات الدكتورة جيهان رشتى عن الإعلام فى الدول الشيوعية — كلية الإعلام جامعة القاهرة ١٩٧٢ .

استراتيجية الدعاية البلشفية الدولية :

عندما جاء البلشفيون إلى الحكم كان هدفهم الأول إشعال الثورات الاشتراكية فى جميع أنحاء العالم للقضاء على النظام الرأسمالى والتخفيف فى الوقت نفسه من ضغط الثوره المضادة والتدخل الأجنبى ضد ثورتهم .

فى ٤ مارس عام ١٩١٩ عقد مؤتمر اشتراكى دولى شامل فى موسكو تقرر فيه إنشاء الدولية الثالثة أو بمعنى أصح الدولية الشيوعية المعروفة باسم الكومنترن كمركز للقيادة العامة للثورة العالمية بهدف تجنيد الثوريين فى جميع أنحاء العالم عن طريق الدعاية ضد الحكومات الرجعية وإعدادهم لتولى قيادة الثورة العالمية . ذلك أن البلاشفة كانوا يؤمنون إيماناً جازماً بأن ماتنبأت الماركسية به من انهيار النظام الرأسمالى قد آن أوانه لأن الحرب الإمبريالية العالمية قد خلقت ظروف الأزمة الأخيرة للرأسمالية بحيث صارت أيامها معدودة بعد أن بلغت حدة تناقضاتها الداخلية ذروتها .

وكانت الإذاعة الموجهة من موسكو إلى العالم الخارجى تقوم بعبء ترويج الدعاية الصادرة عن الكومنترن بلغات العالم المختلفة على الموجات الطويلة والقصيرة .

أما الدعاية غير المباشرة فتقوم بها الأحزاب الشيوعية ، المحلية فى بلدان العالم المختلفة .

ويتكون كل حزب من نواة من الأعضاء المختارين بعناية مهمتهم الأساسية ترسيخ الأفكار الماركسية فى عقول الجماهير العمالية وحثهم على العمل وفقاً لهذه الأفكار .

أما مهمتهم التالية فهى الدعاية بمعناها الضيق بمعنى نشر الصحف والكتب والكتيبات وتنظيم المواكب والاجتماعات والمحاضرات [١] .

فعندما أنشئ الكومنترن طولب الشيوعيون فى جميع البلاد بتكوين أحزاب

---

(١) Lambert, Richard: "Propogand" - P. 131—163, (Thomas Nelson & sons, 1941)

شيوعية تقوم على أساس المركزية الديمقراطية بمعنى أن تنتخب الأجهزة الدنيا فى الحزب أجهزته العليا وأن تكون قرارات الأجهزة العليا فى الوقت نفسه ملزمة للأجهزة الدنيا إلزاماً مطلقاً وكلياً ، وأن تكون هناك سلطة مركزية قوية فى الحزب لها السلطان النهائى الشامل على جميع الرفاق فى الحزب فى فترة ما بين المؤتمرات .

ولم تكن المركزية الديمقراطية هى الأساس الذى قامت عليه الأحزاب الشيوعية المختلفة فحسب بل كانت أيضاً الأساس الذى قامت عليه الدولية الشيوعية نفسها (الكومنترن) بحيث صارت الأحزاب الشيوعية فى كل بلد مجرد فروع للكومنترن تنفذ تعليماته حتى فيما يتعلق بأدق تفاصيل شئونها الداخلية .

ذلك أن الكومنترن قد أنشئ فى حقيقة الأمر كجهاز لتوجيه الحركة الشيوعية الدولية على أساس إخضاع مصالح الحركة فى كل بلد للمصالح العامة للثورة العالمية توقعاً لقيامها بين لحظة وأخرى واستيلاء الطبقة العاملة على القوة السياسية والاقتصادية وفرض دكتاتورية البروليتاريا فوراً لاستخدامها فى تجريد البرجوازية ونقل وسائل الإنتاج إلى الدولة البروليتارية تحت الإدارة الاشتراكية للطبقة العاملة.

والجدير بالذكر أن الغرب قد اعتبر الكومنترن منذ الوهلة الأولى جهازاً دعائياً أنشأته وزارة الخارجية السوفيتية للدعاية للثورة العالمية دون تعقيدات دبلوماسية حيث إنه فى شكله المعلن هيئة دولية لا تنتمى للحكومة السوفيتية .

وقد تكون الكومنترن فى أول الأمر من الحزبين الشيوعيين اللذين كانا قائمين فعلا وقت إنشائه وهما الحزب الروسى والحزب الألمانى ومعهما بعض الجماعات الاشتراكية .

وعقد الكومنترن مؤتمره الثانى فى شهرى يوليو وأغسطس ١٩٢٠ فى بتروجراد واشترك فى الاجتماع مندوبو ٣٧ قطراً .

وفى هذا المؤتمر أقرت النقاط الواحدة والعشرون التى اعتبر قبولها بحذافيرها

شرطاً أولياً للانضمام إلى الكومنترن . وتضمنت تلك النقاط ضرورة قبولها مبدأ المركزية الديمقراطية أساساً للحزب المنضم وأن يكون الحزب على استعداد للقيام بالأعمال المشروعة وغير المشروعة التى يتطلبها التعجيل بقيام الثورة وبخاصة الدعاية بين القوات المسلحة .

وهكذا تحددت بصفة حاسمة ونهائية صورة الدولية الجديدة وأيديولوجيتها ، بل وأساليب عملها أيضاً[1] .

ولقد مر الكومنترن بعدة أطوار كانت فى الواقع صدى للتطورات التى حدثت فى الاتحاد السوفيتى وتغير الظروف .

ففى منتصف عام ١٩٢١ عقد المؤتمر الثالث للكومنترن واتجه الرأى فيه إلى العدول عن سياسة المقاطعة الكاملة لجميع الحركات العمالية غير الشيوعية فى مختلف بلاد العالم ووضع أسلوب للتعاون مع الأحزب الاشتراكية الأخرى فى قضايا محدده تهم العمال . وهو ما عرف بأسلوب « الجبهة المتحدة » وكان الدافع الرئيسى لهذا الاتجاه أن اهتمام الشيوعيين بتركيز كل جهودهم لإشعال الثورة العالمية قد صرفهم تماماً عن الاهتمام بالكفاح اليومى للعمال فيما يتصل بقضاياهم المعيشية مثل الأجور وشروط العمل . مما جعل العمال ينفضون من حولهم . ولذا اتجه الشيوعيون إلى العمل من داخل النقابات والمنظمات العمالية المختلفة . وقد أدت هذه السياسة فعلا إلى زيادة كبيرة فى العضوية من ناحية وإلى شد أزر الأجنحة اليسارية فى الأحزاب الاشتراكية وجعلها أكثر صلابة من ناحية أخرى .

ولم يطرأ أى تغيير يذكر فى السياسة العامة للكومنترن إلا عندما أعلن ستالين سياسته « الاشتراكية فى بلد واحد » نتيجة لاقتناع الشيوعيين بأن الثورة العالمية قد يطول انتظارها ولن تقع بين لحظة وأخرى كما كانوا ينتظرون حيث بدا واضحاً أن الطبقات الرأسمالية الحاكمة قد أخذت تسترد أنفاسها فى العالم الرأسمالى بعد أن تغلبت على مصاعب فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى .

وليس من شك أن إعلان شعار الاشتراكية فى بلد واحد قد قلل إلى حد ما

---

(١) عبد الكريم أحمد : الكومنترن – الكاتب العدد ٥٨ – ١٩٦٦ .

من أهمية الكومنترن بوصفه الجهاز الذى قام أساساً لإشعال الثورة العالمية فوراً إذ تركز اهتمام الشيوعيين فى جميع البلاد على دعم الاشتراكية فى روسيا والمعاونة على تنميتها وصار واجبهم الأول الدفاع عن أول بلد فى العالم تحققت فيه الثورة البروليتارية إلى أن يحين وقت الأزمة الأخيرة المؤذنة بانهيار النظام الرأسمالى فى العالم كله . .

ولم يستعد الكومنترن مركزه السابق إلا فى أوائل الثلاثينيات عندما اضطر ستالين إلى الالتجاء إليه مرة أخرى فى صراعه ضد الهتلرية فى ألمانيا .

ففى هذه المرحلة خلق ظهور الهتلرية فى ألمانيا موقفا جديداً بالنسبة للأوضاع العالمية واعتبرها كثير من الاشتراكيين رأس الحربة فى الثورة المضادة والسلاح الأخير الذى تستخدمه الرأسمالية فى الدفاع عن نفسها وحل تناقضاتها والوقوف فى وجه القوى التقدمية الزاحفة .

ولذلك اتجهت جهود الكومنترن كلها ابتداء من سنة ١٩٣٣ إلى اتخاذ الإجراءات الدفاعية لإيقاف التوسع النازى . وتغيرت سياسة الشيوعية الدولية وانضم الاتحاد السوفييتى نفسه إلى عصبة الأمم التى كان الشيوعيون يطلقون عليها قبل ذلك اسم « عصبة اللصوص » ، فى مجهود يائس لتكتيل العناصر التقدمية ضد الخطر الفاشى الداهم . واتخذ الكومنترن سياسته الجديدة التى عرفت باسم سياسة الجبهة الشعبية التى تقوم على التعاون مع الاشتراكيين بل حتى مع اليسار البورجوازى التقدمى مع العدول عن العمل على إشعال الثورة العالمية .

وفى عام ١٩٣٦ جاءت إلى الحكم فى فرنسا أول حكومة جبهة شعبية بتأييد الشيوعيين ولكن دون اشتراكهم . وفى الوقت نفسه أنشأ هتلر جبهة مناهضة للكومنترن من ألمانيا وإيطاليا واليابان (دول المحور) واستمر الصراع بين الكتلتين إلى أن قامت الحرب العالمية الثانية .

وفى مايو عام ١٩٤٣ أعلن حل الدولية الشيوعية وذلك بعد أن دخل الاتحاد السوفييتى الحرب إلى جانب الحلفاء الغربيين وقال ستالين إن هذا الحل أمر سليم جاء فى وقته لأنه يسهل تنظيم القيام بهجوم موحد من جانب الأمم

المحبة للحرية ضد العدو المشترك ، ويفضح ادعاءات خصوم الشيوعية داخل الحركة العمالية بأن الأحزاب الشيوعية فى البلاد المختلفة تعمل بأوامر من الخارج وليس لمصالح شعوبها . وكان مما قاله ستالين أيضاً إن ذلك يسهل عمل المدافعين عن أوطانهم فى جميع البلاد لتوحيد الشعوب المحبة للحرية فى معسكر واحد ضد خطر السيطرة النازية على العالم . وبذلك يمهد السبيل لتنظيم إخاء الدول فى المستقبل على أساس المساواة بينها .

وبعد الحرب العالمية الثانية كان مركز الأحزاب الشيوعية فى معظم بلاد أوربا قد تغير تماماً بعد أن تولت فى أغلب هذه البلاد قيادة حركات المقاومة السرية ضد النازى أثناء الحرب . مما أهلها لاحتلال مراكز هامة فى حكومات ما بعد الحرب التى عرفت باسم حكومات الجبهة الوطنية . . .

وقد قامت نتيجة لهذه السياسة الديمقراطيات الجديدة فى شرق أوروبا التى اتخذت اتجاهاً جديداً فى التطبيق الاشتراكى يقوم على مزيج من تأميم الصناعات الكبرى والسماح بقيام المشروعات الخاصة الصغيرة وتجارة التجزئة وملكية صغار الفلاحين كأساس ملائم لتعمير ماخربته الحرب وكفترة انتقال إلى المجتمع الاشتراكى الكامل[1]

وعندما اشتدت الحرب الباردة بين المعسكرين الغربى والشرقى أحست الدول الشيوعية بالحاجة إلى إنشاء منظمة شيوعية دولية جديدة لتنسيق كفاحها فى الصراع الجديد فقررت فى مؤتمر الأحزاب الشيوعية الذى عقد فى وارسو عام ١٩٥٦ إنشاء مكتب الاستعلامات الشيوعى الذى عرف باسم الكومنفورم وجعلت مقره فى بلغراد ويضم ممثلين للأحزاب الشيوعية فى الاتحاد السوفييتى ودول أوربا الشرقية وفرنسا وإيطاليا إلا أنها عادت فألغت هذا المكتب عام ١٩٥٨ فى محاولة منها لتخفيف حدة التوتر الدولى والحرب الباردة ودعم حركة التعايش السلمى بين النظامين الاجتماعيين العالميين .

والأمر الذى لا شك فيه أن المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى السوفييتى قد بلور بصورة واضحة الأيديولوجية السياسية والدعائية السوفيتية الحالية فى صراعها الكبير مع المعسكر الغربى بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، على أننا سنؤجل الحديث عن ذلك إلى الفصل التالى حين نتحدث عن الصراع السوفييتى الصينى الذى زادته قرارات هذا المؤتمر اشتعالا وذلك للرابطة الوثيقة بين الظاهرتين .

• • •

obeikandl.com